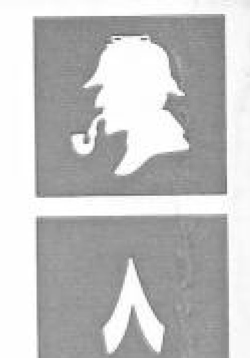
النص الكامل





8

تأليف:
آرثر كونان دويل

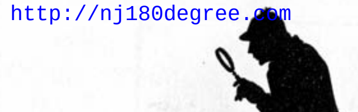
لُغز العِصابة الرَّقْطاء

بالرسومات الأصلية



الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers





مغامرات

شيرلوك هولمز

(٨)

لُغز العِصابة الرَّقْطاء

نُشرت للمرة الأولى في صحيفة «ستراند» الشهرية
في عدد شباط (فبراير) ١٨٩٢

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون



الطبعة الأولى
٢٠٠٧

العنوان الإلكتروني للناشر
info@al-ajyal.com

موقعنا على الإنترنت
www.al-ajyal.com



آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في إسكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩ ، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطرته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلاّت الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري؛ وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة قرمزية» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

كانت إحدى هذه الحوادث تتعلق برجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث أبدل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في

غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.





وفي عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور دويل في حرب البُوير (في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولقب «سير» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته

إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

وتوفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

* * *



شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل". وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة

على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨،



وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (٢٢١ب شارع بيكر) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِية القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو). وهو طبيب وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وتخرج طبيباً سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش سنة ١٨٨٠ وأمضى مدة خدمته في أفغانستان مع الجيش البريطاني، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد في أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط. وقد تزوج الدكتور واطسون في أواخر سنة ١٨٨٦، لكن دويل لم يشأ أن يعرّفنا إلى زوجته ولم يذكر لنا اسمها.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية

عام ١٨٩٣ «قتل» دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

* * *



قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة قرمزية»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، وهي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

وفي السنة التالية (١٨٩١) بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو)، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة نُشر آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة (وعنوانها «المشكلة الأخيرة») في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على «بعث» شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الخالي» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد؛ فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الخالي) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد

التبّت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كوليِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلَصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة «عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب عائلة باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣، ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (٩/١٩١٤-٥/١٩١٥)، وهي أعظم روايات شيرلوك هولمز كما يقول النقّاد. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٠/١٩٢١-٤/١٩٢٧) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومنسية ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والدراسات الغير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من المؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفيسور تشالنجر، وأشهر هذه الروايات هي «العالَم المفقود»، ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات، وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

❋ ❋ ❋



رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ روايات هولمز وقصصَه منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأ في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ

لُغز العِصابة الرَّقْطاء

الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسة الجديدة «الظهور الأخير» كل من ولتر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وجلبرت هاليدي وأليك بول وجوزف سمبسون. أما السلسلة الأخيرة -وهي «قضايا شيرلوك هولمز»- فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم أ. جلبرت وهاوارد إلكوك وفرانك وايلز.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند»، أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كوليِرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردريك دوزْ ستيل، ومنهم و هـ هايد وجوزف فريدرتش ورتشارد غوتشمت.

* * *

حين ألقي نظرة سريعة على سجلاتي الخاصة بالقضايا السبعين الغريبة التي قمت فيها بدراسة أساليب صديقي شيرلوك هولمز خلال الأعوام الثمانية الماضية أجد الكثير منها مأساوياً، وبعضها مضحكاً، وعدداً كبيراً منها غريباً فحسب، ولكن ليس بينها ما هو عادي على أية حال؛ ذلك لأن صديقي كان يعمل من منطلق حب عمله وفنّه وليس من أجل الحصول على ثروة، ولذلك كان يرفض أن يربط نفسه بأي تحقيق لا يغلب عليه طابع الغرابة والتشويق، وربما الخيال الجامح أيضاً. ومن بين كل هذه القضايا المتنوّعة لا أستطيع أن أذكر أي قضية تقدم ملامح أكثر غرابة من تلك التي ارتبطت بعائلة رويلوت المعروفة والتي كانت تقيم في ستوك موران في إقليم صَرّي.

وقد وقعت أحداث هذه القضية في الأيام الأولى التي جمعتني بهولمز حين كنا نسكن معاً في شارع بيكر قبل زواجي، وكان من الممكن أن أنشرها من قبل لولا أننا قطعنا على أنفسنا في ذلك الوقت وعداً بالحفاظ على سرّية القضية، وهو وعد أجدني قد تحررت منه في الشهر الماضي بسبب الوفاة المبكرة للسيدة التي قُدِّم الوعد لها. وبالإضافة إلى ذلك فلعلّ

من الأفضل أن تظهر الحقيقة إلى النور الآن، لا سيما والشائعات منتشرة بشأن موت الدكتور غريمسْباي رويلوت، ومن شأن تلك الشائعات أن تصوّر الأمر بأسوأ من حقيقته.

كنا في أوائل شهر نيسان (أبريل) من عام ١٨٨٣ عندما استيقظت ذات صباح لأجد شيرلوك هولمز مرتدياً ملابسه كاملة وواقفاً بجوار سريري. كانت الساعة الموجودة على المدفأة تشير إلى السابعة والربع، ولأنه كان معتاداً على الاستيقاظ المتأخر فقد نظرت إليه ببعض الدهشة، بل ربما بقليل من الاستياء لأنني نظاميّ في عاداتي.

قال هولمز: أنا آسف جداً لأنني روّعتك يا واطسون، ولكنه حظنا المشترَك هذا الصباح؛ فقد رُوِّعت السيدة هدسون فردّت الأمر عليّ ثم رددته أنا عليك.

- ما هو الأمر إذن؟ حريق؟

- لا، بل عميل. يبدو أن شابة قد وصلت وهي في حالة من الانفعال الشديد وتصرّ على رؤيتي، وهي تنتظر الآن في غرفة الجلوس. وعندما تتجول السيدات الصغيرات في المدن الكبيرة لتوقظ الناس بهذه الطريقة في هذا الوقت من الصباح وتُخرجهم من

أسرّتهم فذلك يعني -كما أفترض- أن في الأمر شيئاً ملحّاً. قد تكون قضية مثيرة للاهتمام وأنا متأكد أنك ستحب أن تتابعها من بدايتها، ولذلك فكرت أن عليّ أن أوقظك لأمنحك الفرصة.

قلت: يا صديقي العزيز، لن أفوّتها بأي ثمن.

إن أكثر الأمور متعة بالنسبة لي هي متابعة هولمز في تحقيقاته المهنية، وكم يطربني أن أتأمل سرعة استنتاجاته التي يصل إليها بسرعة البديهيات، ومع ذلك فهي دائماً مبنية على أساس منطقي يستطيع به حلّ القضايا الموكولة إليه. لذلك فقد ارتديت ملابسي بسرعة وصرت جاهزاً في دقائق قليلة لمصاحبة صديقي إلى غرفة الجلوس في الطابق العلوي، وفور دخولنا هبّت واقفةً من مقعدها بجوار النافذة سيدة ترتدي السواد وتغطي وجهها بنقاب ثقيل.

قال هولمز بمرح: صباح الخير يا سيدتي. أنا شيرلوك هولمز، وهذا هو صديقي الحميم وزميلي الدكتور واطسون؛ يمكنك التحدث أمامه بنفس الحرية التي يمكنك التحدث بها أمامي. حسناً، أنا سعيد لأنّ السيدة هدسون امتلكت من حسن التفكير ما دفعها إلى إشعال النار. أرجو أن تقتربي منها، وسأطلب لك كوباً من القهوة الساخنة لأنني ألاحظ أنك ترتجفين.

فقالت المرأة بصوت منخفض وهي تنتقل إلى كرسي آخر كما طُلب منها: ليس البرد ما يجعلني أرتجف.

- ما السبب إذن؟

- إنه الخوف يا سيد هولمز... الرعب.

رفعت عن وجهها النقاب فاستطعنا أن نرى حقاً أنها في حالة اهتياج يدعو إلى الشفقة، فقد كان وجهها متعباً شاحباً وعيناها قلقتين خائفتين كعينَي حيوان مطارَد. كانت ملامحها وقوامها لامرأة في الثلاثين من



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

عمرها، بينما غزا الشيب المبكر شعرها وارتسم القلق والإرهاق على تعبيرات وجهها.

تفحّصها شيرلوك هولمز بنظرة من نظراته الشاملة السريعة، ثم انحنى إلى الأمام وربّت على كتفها وهو يقول مهدّئاً: لا تخافي، فلا شك في أننا سنضع الأمور في نصابها الصحيح قريباً. لقد أتيت بالقطار هذا الصباح كما أرى.

- أنت تعرفني إذن؟

- لا، ولكنني لاحظت في كفّ قفازك الأيسر النصف الثاني لتذكرة العودة. لا بدّ أنك بدأت رحلتك مبكراً بالرغم من أنك قمت برحلة طويلة في عربة صغيرة بحصانين على طريق موحل قبل أن تصلي إلى المحطة.

جفلت السيدة بقوة وحدّقت إلى رفيقي بذهول، فقال هولمز مبتسماً: ليس في الأمر غموض يا سيدتي العزيزة، فالذراع اليسرى لسترتك مُلطّخة بالوحل فيما لا يقل عن سبعة أماكن، والآثار كلها حديثة تماماً، والعربة الصغيرة ذات الحصانين هي المركبة الوحيدة التي تنثر الوحل إلى الأعلى بهذه الطريقة عندما تجلسين على جانب السائق الأيسر.

قالت: أياً كانت الأسباب التي دعتك إلى هذا

الاستنتاج فأنت على حق تماماً، فقد بدأت رحلتي من المنزل قبل السادسة ووصلت إلى محطة ليذرهيد في السادسة والثلث، ومنها انتقلت بأول قطار إلى محطة واترلو. فأنا يا سيدي لا أستطيع تحمّل هذا التوتر أكثر من ذلك، وإذا استمر فسوف أُجَنّ بالتأكيد! ليس لي أحد ألجأ إليه... لا أحد سوى شخص واحد، شخص يهتم بأمري ولكنه لا يستطيع مساعدتي. لقد سمعت بك يا سيد هولمز من السيدة فارينتوش التي ساعدتها في وقت عصيب، وقد أخذتُ منها عنوانك. آه يا سيدي، أتظن أن بإمكانك مساعدتي أنا أيضاً؟ ليس بوسعي أن أكافئك على خدماتك في الوقت الحاضر، ولكن في خلال شهر أو ستة أسابيع سأتزوج وأتحكم في دخلي الخاص، ووقتها على الأقل لن تجدني جاحدة لمعروفك.

اتجه هولمز إلى مكتبه فسحب دفتراً يسجّل فيه القضايا وبدأ يراجعه، ثم قال: فارينتوش؛ نعم، أذكر تلك القضية، كانت تتعلق بتاج الأوبال. أظن أنها كانت قبل أن أعرفك يا واطسون. كل ما يمكنني قوله -يا سيدتي- هو أنه يسعدني أن أكرّس لقضيتك مثل الاهتمام الذي أوليته لقضية صديقتك، أما بالنسبة للمكافأة فعملي هو مكافأة في حد ذاته، ولكن لك حرية دفع النفقات التي سأتكبدها في الوقت الذي يناسبك. والآن أرجو منك أن تقصّي علينا كل ما يمكن

أن يساعدنا في تكوين رأي عن الموضوع.

فأجابت زائرتنا قائلة: للأسف إن ما يجعل موقفي أكثر رعباً هو حقيقة أن مخاوفي غير محدَّدة وشكوكي تعتمد كلياً على نقاط صغيرة قد تبدو تافهة في نظر الآخرين، حتى إن الشخص الوحيد الذي أملك الحق في اللجوء إليه وطلب نصيحته قد نظر إلى الأمر كما لو كان أوهام امرأة مجنونة! وبالرغم من أنه لم يقُل ذلك صراحة إلا أنني استطعت أن أستشفّه من إجاباته المهدّئة وعينيه اللتين تتجنبان النظر إليّ. ولكنني سمعت أنك تستطيع النظر بعمق في خبايا الشرّ الموجود في النفس البشرية يا سيد هولمز، فهل يمكنك أن تنصحني حتى أستطيع المشي وسط الأخطار التي تحيط بي؟

- كلي انتباه يا سيدتي.

- اسمي هو هيلينا ستونر، وأنا أقيم حالياً مع زوج أمي، وهو الشخص الوحيد الباقي على قيد الحياة من عائلة من أقدم العائلات السكسونية في إنكلترا، وهي عائلة رويلوت التي كانت تقيم في ستوك موران على الحدود الغربية لمقاطعة صرّي.

هزّ هولمز رأسه وقال: الاسم ليس غريباً على مسامعي.

قالت: كانت هذه العائلة واحدة من أغنى العائلات في إنكلترا في وقت من الأوقات، وكانت ممتلكاتها تمتدّ إلى بيركشاير في الشمال وهامبشاير في الغرب. ثم تعاقب فيها في القرن الأخير أربعة من الورثة المبذرين والمقامرين، فانتهى أمر العائلة أخيراً ولم يبقَ لها إلاّ فدادين قليلة من الأرض ومنزل عمره مئتا عام يرزح تحت رهن ثقيل، وفيه قضى المالك الأخير أيامَه في شقاء وهو يعيش حياة عصيبة كنبيل معدم. ولكن ابنه (أي زوج أمي) رأى أن عليه أن يهيّئ لنفسه ظروفاً جديدة، فحصل على قرض من أحد الأقارب مكّنه من الحصول على شهادة جامعية في الطب، ثم ذهب إلى الهند حيث استطاع -بمهارته المهنية وقوة شخصيته- تأسيس عيادة واسعة، ولكنه ارتكب جريمة حين ضرب رئيس خدمه حتى الموت في نوبة غضب سبّبتها بعض السرقات في المنزل، ثم أفلت من عقوبة الإعدام بأعجوبة رغم أنه قد عانى من فترة سجن طويلة، وعاد بعد ذلك إلى إنكلترا رجلاً يائساً حزيناً.

وحين كان الدكتور رويلوت في الهند تزوّج أمي السيدة ستونر، وكانت أرملة اللواء ستونر الذي خدم في سلاح المدفعية في البنغال. وقد كنت أنا وأختي جوليا (ونحن توأمتان) في السنة الثانية من عمرنا عندما تزوجت أمنا للمرة الثانية. وكانت أمنا في

ذلك الوقت تملك مبلغاً كبيراً من المال لا يقل دخله من ألف جنيه في العام، وقد أوصت بهذا المبلغ كله للدكتور رويلوت ما دمنا نقيم معه، مع شرط بأن يتم تخصيص مبلغ سنوي محدد لنا عند زواجنا. ثم توفيت والدتنا بعد عودتنا إلى إنكلترا بوقت قصير، فقد ماتت في حادثة على السكة الحديدية قرب كرو منذ ثمانية أعوام، وعندها تخلّى الدكتور رويلوت عن محاولاته لإثبات نفسه في عيادة بلندن وأخذنا لنعيش معه في منزل أجداده القديم في ستوك موران، حيث كان المال الذي تركته أمنا كافياً لسد كافة احتياجاتنا، وبدا أننا سنعيش في سعادة بلا أية عقبات.

ولكن تغيّراً رهيباً طرأ على زوج والدتنا في تلك الفترة، فبدلاً من أن يعقد الصداقات مع الناس ويتبادل الزيارات مع الجيران (الذين سعدوا جداً في البداية لرؤية واحد من أفراد عائلة رويلوت وقد عاد إلى الإقامة في مقر العائلة القديم) قام بعزل نفسه في داخل المنزل وأصبح نادراً ما يخرج إلا للدخول في نزاعات شرسة مع أي شخص قد يقابله. إن الطبع العنيف الذي يكاد يصل إلى حد الهوس وراثي عند رجال العائلة، وقد ازداد الأمر حدّة في حالة زوج أمي -في اعتقادي- بسبب إقامته الطويلة في المناطق المَدارية في الهند. وبسبب طباعه الحادة دخل زوج أمي في سلسلة من المشاجرات المخزية انتهت اثنتان منها في محكمة

الجنح، حتى صار أخيراً رمزاً للرعب في القرية وصار الناس يهربون عند اقترابه، لأنه رجل ذو قوة كبيرة ولا يكاد يستطيع التحكم في غضبه.

وقد وقعت أحدث المشكلات حين قام بإلقاء حدّاد القرية من فوق الجسر إلى النهر في الأسبوع الماضي، ولم أتمكن من تفادي فضيحة جديدة إلا بعد



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

أن دفعت كل المال الذي استطعت جمعه. إنه لا يملك أي أصدقاء على الإطلاق ما عدا الغجر الرحّالة، فهو يسمح لهؤلاء المتشردين بإقامة معسكرهم على الفدادين القليلة المكسوة بالشجر الشائك التي تمثل ممتلكات العائلة، ويقبل في المقابل أن يستضيفوه في خيامهم، وقد يهيم معهم في بعض الأحيان لأسابيع متصلة، كما أنه يهوى أيضاً الحيوانات الهندية التي أرسلت إليه، وهو يمتلك الآن فهداً وقرداً يتجولان بحرّية على أراضيه ويخاف منهما القرويون بنفس درجة خوفهم من سيدهما تقريباً.

يمكنك أن تتخيّلِ -مما قلته- أنني وأختي المسكينة جوليا لم نحظ بقدر وافر من السعادة في حياتنا، فلم يستمرّ معنا أيّ من الخدم واضطررنا إلى القيام بكل العمل المنزلي لوقت طويل. وبالرغم من أن أختي لم تكن قد جاوزت الثلاثين من عمرها عندما ماتت إلا أن الشيب كان قد بدأ يدب في شعرها مثلما حدث مع شعري.

سأل هولمز: لقد ماتت أختك إذن؟

- منذ عامين فقط، وهذا هو الموضوع الذي أودّ أن أحدثك بخصوصه. يمكنك أن تتوقع أن فرصتنا في مقابلة من هم في مثل سنّنا ومركزنا كانت ضئيلة للغاية بسبب نوعية حياتنا التي وصفتها لك. على أية

حال كانت لدينا خالة، هي أخت أمي التي لم تتزوّج واسمها هونوريا وستفيل وتعيش بالقرب من هارو، وكان مسموحاً لنا أن نزور منزلها زيارات قصيرة من حين إلى آخر، وقد ذهبت جوليا إلى هناك في عيد الميلاد منذ عامين حيث قابلت رائداً في البحرية يعمل بنصف أجر وتمّت خطبتها له، وعلم زوج أمي بالخطبة بعد عودة شقيقتي فلم يعترض على الزواج، ولكن حادثاً رهيباً وقع قبل أسبوعين من اليوم الذي تم تحديده للزفاف فحرمني من رفيقتي الوحيدة.

كان شيرلوك هولمز يميل إلى الخلف في كرسيه وهو مغلق عينيه ورأسه يغوص في وسادة، إلا أنه فتح جفنيه قليلاً في تلك اللحظة ونظر إلى زائرته قائلاً: أرجو أن تكوني دقيقة في سردك للتفصيلات.

- من السهل عليّ أن أكون كذلك؛ فكل ما حدث في تلك الفترة مطبوع في ذاكرتي. إن المنزل الريفي قديم جداً كما قلت لك، وفيه جناح واحد قابل للسكنى في الوقت الحالي، وغرف النوم في هذا الجناح تقع في الطابق الأرضي بينما تقع غرف الجلوس في وسط البناء. أول غرف النوم تلك هي غرفة الدكتور رويلوت، والثانية غرفة أختي، أما الثالثة فغرفتي، وليس بين الغرف أيّ اتصال ولكنها تفتح على الممر نفسه. هل ما قلته واضح؟

- تماماً.

- نوافذ الغرف الثلاث تطلّ كلها على المرج العشبي. وفي الليلة المشؤومة ذهب الدكتور رويلوت إلى غرفته مبكراً، ومع ذلك فقد عرفنا أنه لم يأوِ إلى فراشه لأن أختي شعرت بانزعاج من رائحة التبغ الهندي الذي كان من عادته تدخينه، ولذلك تركت غرفتها وجاءت إلى غرفتي فجلست معي لبعض الوقت وتحدثنا عن زفافها الذي اقترب موعده. وقد قامت في الساعة الحادية عشرة لتتركني، ولكنها توقفت عند الباب ونظرت إلى الخلف وقالت: أخبريني يا هيلين، هل سبق لك أن سمعت شخصاً يصفر في عمق الليل؟

فقلت: مطلقاً.

- هل يمكن أن تصفري أنت في أثناء نومك؟

- بالتأكيد لا. ولكن لماذا؟

- لأنني كنت أسمع صوت صفارة واضحاً ومنخفضاً في الساعة الثالثة صباحاً خلال الليالي القليلة الماضية جميعاً. إن نومي خفيف ولذلك فقد أيقظني الصوت مراراً، ولكنني لا أستطيع تحديد مصدره، فربما كان قادماً من الغرفة المجاورة وربما كان من ناحية المرج العشبي، وهكذا فكرت في أن

أسألك إن كنت قد سمعتِه.

- لا، لم أسمع. لا بد أنهم هؤلاء الغجر الأشقياء في المزرعة.

- هذا محتمَل، ولكنني أتساءل لماذا لا تسمعينه أنت أيضاً إن كان يأتي من ناحية المرج العشبي!

- ربما لأن نومي أثقل من نومك.

- حسناً، ليس للأمر أهمية كبيرة.

ثم ابتسمت لي وأغلقت بابي، وبعد لحظات قليلة سمعتها تدير المفتاح في قفل غرفتها.

قال هولمز: حقاً؟ هل كان من عادتكما دائماً أن تغلقا على نفسيكما بالمفتاح؟

- دائماً.

- ولماذا؟

- ذكرت لك أن زوج أمي يحتفظ بفهد وقرد، ولذلك كنا لا نشعر بالأمان ما لم نغلق الأبواب.

- حسناً، أرجو أن تكملي روايتك.

قالت: لم أستطع النوم تلك الليلة؛ فقد داهمني شعور غامض بقرب حدوث بلية، فأنا وشقيقتي

توأمٌ كما قلت لك من قبل، وأنت تعرف كيف تكون الصلة دقيقة بين شخصين مرتبطين بمثل هذه الصلة الوثيقة. كانت ليلة موحشة، فقد راحت الرياح تعوي في الخارج والمطر يضرب بقوة على النوافذ، وفجأة انفجرت وسط ضجيج العاصفة صرخة هائجة لامرأة مروَّعة، وأدركت أنه صوت أختي فقفزت من سريري وتلفّحت بشال ثم أسرعت إلى الممر. وعندما فتحت باب غرفتي بدا لي أنني سمعت صوت صفارة منخفض كالذي وصفته أختي، ثم سمعت بعد لحظات قليلة قرقعة كما لو كان صوت سقوط كتلة من المعدن، وعندما أسرعت عبر الممر وجدت أن



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

باب غرفة أختي مفتوح ويدور حول مفصّلاته ببطء، فحدّقت إليه برعب لأنني لم أعرف ما الذي سيخرج منه، ولكنني رأيت أختي تظهر على عتبة الباب في ضوء مصباح الممر ووجهها ممتقع من الرعب ويداها تتلمّسان المساعدة وجسدها يتمايل إلى الأمام والخلف كشخص ثمل، فأسرعت إليها وأحطتها بذراعيّ، ولكن في تلك اللحظة بدا وكأن ركبتيها قد



رسم جوزف فريدرتش ١٩٠٦ Josef Friedrich 1906

خذلتاها فسقطت على الأرض، وأخذت تتلوّى كمن يعاني ألماً شديداً وأطرافها تهتزّ بشدة. وقد فكرت في البداية أنها لم تعرفني، ولكن بينما كنت أنحني عليها صرخت فجأة بصوت لن أنساه أبداً وقالت: آه، يا إلهي! هيلينا، إنها العصابة... العصابة الرَّقْطاء!

أرادت قول شيء آخر وأشارت بإصبعها في الهواء باتجاه غرفة زوج أمي، ولكن موجة جديدة من التشنّجات انتابتها فاختنقت كلماتها. عندئذ أسرعت خارجة من الغرفة وأخذت أنادي زوج أمي بصوت عالٍ، فخرج مسرعاً من غرفته مرتدياً رداء النوم. وكانت أختي فاقدة الوعي حين وصل إليها، وبالرغم من كل محاولاته ورغم أنه أرسل في طلب المساعدة الطبية من القرية إلا أن كل تلك الجهود ذهبت هباء، لقد انهارت أختي ببطء وماتت دون أن تستعيد وعيها، وكانت تلك هي النهاية المريعة لأختي الحبيبة.

قال هولمز: لحظة واحدة، هل أنت متأكدة من أنك سمعت الصفارة والصوت الذي يشبه صوت سقوط كتلة من المعدن؟ أتقسمين على ذلك؟

- هذا هو ما سألني عنه الطبيب الشرعي في أثناء التحقيق. لقد غلب عليّ انطباع بأنني سمعت هذه الأصوات، ولكن يمكن طبعاً أن أكون قد توهمت سماعها بسبب صخب العاصفة وصرير البيت القديم.

- هل كانت أختك مرتدية ملابس الخروج؟

- لا، بل كانت في ملابس النوم، وقد وجدنا في يدها اليمنى بقايا عود متفحم من الكبريت وفي يدها اليسرى علبة الكبريت.

- مما يُظهر أنها أشعلت النور ونظرت حولها عندما وقع الهجوم المفاجئ. هذا مهم. وما هي النتيجة التي توصّل إليها الطبيب الشرعي؟

- لقد درس القضية باهتمام كبير لأن الدكتور رويلوت كان مشهوراً بسوء تصرفاته منذ زمن طويل، ولكنه لم يتمكن من التوصل إلى سبب مقنع للوفاة. وقد أظهرت شهادتي أن الباب كان مُقفلاً من الجهة الداخلية وأن النوافذ كانت مزوّدة بمصاريع قديمة الطراز ذات قضبان حديدية عريضة يتم إغلاقها بإحكام كل ليلة، وفُحِصت الجدران بدقة فتبين أنها مصمتة تماماً، كما عاينوا الأرضيات بشكل كامل وصولاً إلى النتيجة نفسها. ورغم أن المدخنة واسعة إلا أنها مغطّاة بشبك عريض، ولذلك فمن المؤكد أن أختي كانت وحيدة تماماً عندما واجهت مصيرها، بالإضافة إلى عدم وجود آثار عنف على جسمها.

- وماذا عن السم؟

- لقد فحصها الطبيب بحثاً عن أثر للسم ولكن

بلا نتيجة.

- وما الذي تسبب في وفاة أختك باعتقادك؟

- أعتقد أنها ماتت من شدة الرعب وبسبب الصدمة العصبية، بالرغم من أنني لا أستطيع تصور الشيء الذي أخافها.

- هل كان في المزرعة غجر في ذلك الوقت؟

- نعم، ففيها بعض منهم بشكل دائم تقريباً.

- وماذا فهمت من هذا التلميح عن العصابة الرقطاء؟

- أفكر في بعض الأحيان أنه كان مجرد كلام نتج من الهذيان، وفي أحيان أخرى أظن أنها ربما كانت تشير إلى عصابة من الناس، وربما إلى هؤلاء الغجر في المزرعة. لعل المناديل المرقّطة التي يضعها كثير منهم قد أوحت إليها بتلك الصفة الغريبة التي استخدمَتها.

هزّ هولمز رأسه كشخص أبعد ما يكون عن الاقتناع، ثم قال: إنه أمر غامض، أرجو أن تكملي قصتك.

- لقد مرّ عامان على تلك الحادثة وسادت الوحشة حياتي أكثر من أي فترة مضت، وبقيت

كذلك حتى وقت قريب، فمنذ شهر شرّفني صديق عزيز كنت أعرفه منذ سنوات بطلب يدي للزواج. إن اسمه أرميتاج، بيرسي أرميتاج، وهو الابن الثاني للسيد أرميتاج من كرين ووتر بالقرب من ريدنغ. ولم يعترض زوج أمي على الزواج الذي سوف يتم في بداية الربيع، وقد بدأت منذ يومين بإجراء بعض الإصلاحات في الجناح الغربي من المبنى، وثُقِب جدار غرفتي فاضطررت إلى الانتقال إلى الغرفة التي ماتت فيها أختي لأنام على السرير الذي كانت تنام عليه. ولك أن تتصور مدى الرعب الذي انتابني عندما استلقيت وأنا مستيقظة أفكر في نهايتها الفظيعة فسمعت فجأة -في سكون الليل- نفس الصفارة المنخفضة التي كانت نذيراً لموتها، فقفزت واقفة وأشعلت المصباح، ولكنني لم أرَ في الغرفة شيئاً. لقد هزّني ما حدث حتى إنني لم أستطع أن أخلد إلى النوم مرة أخرى، فارتديت ملابسي وتسلّلت حالما طلع النهار فاستأجرت عربة صغيرة من مقهى كراون الواقع في الجهة المقابلة، واتجهت إلى ليذرهيد ومنها أتيت إلى هنا هذا الصباح ولي هدف واحد، هو رؤيتك وطلب نصيحتك.

قال صديقي هولمز: لقد تصرفتِ بحكمة، ولكن هل أخبرتني بكل شيء؟

- نعم، بكل شيء.

- بل لم تفعلي يا آنسة رويلوت؛ إنك تتستّرين على زوج أمك.

- ماذا تقصد؟

جواباً على سؤالها دفع هولمز حافة القماش الأسود المُزركش الذي يغطي اليد التي تضعها زائرتنا على ركبتها، فرأينا خمس بقع زرقاء، علامات أربع أصابع وإبهام، مطبوعة على معصمها الأبيض. قال هولمز: لقد تمت الإساءة إليك بقسوة.

فاحمرّ وجه الفتاة بشدة وغطّت معصمها المصاب وقالت: إنه رجل قاس، وقد لا يعرف مقدار قوّته.

ساد الصمت لوقت طويل أسند خلاله هولمز ذقنه على يديه وأخذ يحدق إلى النار المستعرة، ثم قال أخيراً: إنها قضية معقدة جداً، وثمة تفصيلات كثيرة أرغب في معرفتها قبل أن أقرر الاتجاه الذي سنتحرك على أساسه، إلا أننا لا نملك دقيقة لنضيعها، فهل يمكننا أن نرى هذه الغرف دون علم زوج أمك لو ذهبنا إلى ستوك موران هذا اليوم؟

- من محاسن المصادفات أنه تحدّث عن مجيئه

إلى المدينة اليوم في عمل مهم، ومن المحتمل أن يظل بعيداً طَوال اليوم، وهكذا لن يزعجك شيء. إن لدينا الآن مدبرة للمنزل، ولكنها عجوز حمقاء ويمكنني إبعادها عن طريقكما بسهوله.

- ممتاز. ألديك اعتراض على هذه الرحلة يا واطسون؟

- على الإطلاق.

- سنذهب معاً إذن، وماذا ستفعلين أنت؟

- أتمنى الآن القيام بأمر أو اثنين ما دمت هنا في المدينة، ولكنني سأعود في قطار الساعة الثانية عشرة لأكون هناك عند وصولكما.

- يمكنك أن تتوقعي حضورنا في وقت مبكر من بعد الظهر، فلديّ أنا أيضاً بعض الأمور البسيطة التي يجب أن أهتم بها. ألا تنتظرين لتناوك الإفطار؟

- يجب أن أذهب. لقد خفّ الحِمل عن قلبي بالفعل منذ أن بُحت لكما بمشكلاتي، وأنا أتطلّع إلى رؤيتكما ثانية بعد ظهر هذا اليوم.

ثم أنزلت على وجهها الغطاء الأسود الثقيل وخرجت من الغرفة بخفّة.

* * *

قال هولمز وهو يميل في كرسيه إلى الخلف: ما رأيك في الأمر كله يا واطسون؟

- يبدو لي أنها قضية غامضة وتنذر بالشر.

- نعم، إنها غامضة وتوحي بكثير من الشر.

- ولكن إذا صحّ ما تقوله السيدة بشأن الجدران والأرضيات والباب والنافذة والمدخنة فلا بد إذن أن أختها كانت وحيدة تماماً عندما لقيت نهايتها الغامضة.

- وماذا عن الصفير الليلي والكلمات الغريبة التي تلفظت بها الأخت وهي في النزع الأخير؟

- لا أعلم.

- إذا فكّرنا بالصفير الليلي مع وجود عصابة من الغجر ترتبط بعلاقة قوية مع هذا الطبيب، بالإضافة إلى أننا نملك من الأسباب ما يجعلنا نصدّق أن للطبيب مصلحة في منع زواج ابنتَي زوجته، وإلى الإشارة التي أشارتها الفتاة الميتة إلى العصابة، وأخيراً إلى حقيقة أن الآنسة هيلينا ستونر قد سمعت صوت رنين معدني ربما كان مصدره أحد تلك الحواجز المعدنية التي تُغلق المصاريع وهو يعود إلى مكانه... إذا فكرنا بذلك كله فأعتقد أن لدينا سبباً جيداً للاعتقاد بأن حل اللغز

يكمن في هذه السلسلة المُريبة من الأحداث.

- ولكن ما الذي فعله الغجر؟

- لا يمكنني الجزم بذلك الآن.

- أرى الكثير من الاعتراضات على مثل هذه النظرية.

- وأنا كذلك، ولهذا السبب بالتحديد سنذهب إلى ستوك موران اليوم، فأنا أريد أن... ما هذا؟!

صدر هذا الهتاف عن صديقي حين فُتح بابنا فجأة بعنف ووقف أمامَنا رجلٌ ضخم. كانت ملابسه مزيجاً غريباً من ملابس المزارعين وأصحاب المهن، فقد ارتدى قبعة رسمية سوداء وسترة رسمية طويلة وحذاء طويل الساق، وكان يؤرجح في يده سوطاً قصيراً، وقد كان طويلاً جداً لدرجة أن قبعته لامست أعلى مدخل الباب وعريضاً لدرجة أنه أغلق الباب بجسمه تماماً. وقف وأخذ يدير وجهه العريض الممتلئ بالتجاعيد والمصفرّ من لفح الشمس من أحدنا إلى الآخر وقد كسته ملامح الشرّ، أما عيناه العميقتان فراحتا تقذفاننا بالنظرات الغاضبة، وأعطاه أنفه النحيل الشامخ مظهر طائر جارح عجوز!

قال: أيكما يُدعى هولمز؟

فقال رفيقي بهدوء: إنه اسمي يا سيدي، ولكنني لم أتشرف بمعرفتك.

- أنا الدكتور غريمسباي رويلوت.

فقال هولمز باسترخاء: حقاً؟ طبيب؟ أرجو أن تجلس.



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

- لن أجلس بالطبع. لقد كانت ابنة زوجتي هنا، فقد تتبعتها. ماذا قالت لك؟

قال هولمز: إن الجوّ بارد بالنسبة لهذا الوقت من السنة.

فصاح العجوز بشراسة: ما الذي قالته لك؟

فتابع رفيقي برباطة جأش قائلاً: ولكنني سمعت أن الزعفران مزدهر.

قال زائرنا الجديد وهو يتقدم خطوة إلى الأمام ويهزّ سوطه القصير: ها، إنك تحاول تضليلي، أليس كذلك؟ أنا أعرفك أيها الوغد فقد سمعت عنك من قبل. أنت هولمز الذي يتدخل فيما لا يعنيه.

فابتسم صديقي.

- هولمز الفضولي!

اتسعت ابتسامة هولمز.

- هولمز المخبر الذي يعمل مع الشرطة البريطانية.

قهقه هولمز بحرارة وقال: محادثتك ممتعة جداً. أرجو أن تغلق الباب عندما تغادر فهناك تيار هوائي واضح.

- سأذهب عندما أقول ما أريد. إياك والتدخل في شؤوني، فأنا أعرف أن الآنسة ستونر كانت هنا. لقد تتبعتها. إن من الخطر معاداتي... انظر.

ثم خطا إلى الأمام بسرعة وأخذ عصا المدفأة فثناها بيديه الكبيرتين حتى تقوست، ثم زمجر قائلاً: حاذر أن تقع في قبضتي.

ثم رمى العصا الملتوية في المدفأة وغادر الغرفة، فقال هولمز ضاحكاً: يبدو أنه رجل لطيف! وبالرغم من أنني لست بمثل هذه الضخامة إلا أنني كان يمكن أن أظهر له -لو بقي معنا قليلاً- أن قبضتي ليست أضعف من قبضته بكثير.

وفيما هو يتحدث قام بالتقاط العصا الفولاذية فأعاد إليها شكلها ثانية، ثم قال: تصور كيف امتلك الوقاحة ليخلط بيني وبين رجال الشرطة الرسميين! لقد زادت هذه الحادثة من متعة تحقيقنا، وعلى أية حال فأنا واثق أن صديقتنا الصغيرة لن تعاني من حماقتها حين سمحت لهذا الوحش بتتبعها. والآن يا واطسون، سنطلب الإفطار ثم سأذهب للحصول على بعض المعلومات التي قد تساعدنا في هذه القضية.

* * *

كانت الساعة قد قاربت الواحدة حين عاد

شيرلوك هولمز من رحلته القصيرة، وكان يحمل في يده ورقة زرقاء ممتلئة بالملاحظات والأرقام المكتوبة بخط مستعجَل. قال: لقد رأيت وصية الزوجة المتوفاة، وقد اضطررت إلى تقدير الأسعار الحالية للاستثمارات المعنيّة حتى أحدد المدلول الدقيق للوصية، فالدخل الكلي الذي كان يقارب ألفاً ومئة جنيه وقت وفاة الزوجة أصبح الآن لا يتجاوز سبعمئة وخمسين جنيهاً بسبب تدهور الأسعار الزراعية. وبما أن لكلّ ابنة الحق في المطالبة بمئتين وخمسين جنيهاً في حالة الزواج فمن الواضح أن زواجهما معاً سيحرمه من حصة كبيرة من دخله ويبقيه مفلساً تقريباً، وحتى لو تزوجت واحدة منهما فقط فسوف ينقص دخله بدرجة كبيرة.

سكت برهة ثم أكمل قائلاً: إن عملي الصباحي لم يذهب هباء، فقد أثبت أن هذا الطبيب الشرس يملك أقوى الدوافع للوقوف في طريق أي زواج للفتاتين. حسناً يا واطسون، إن هذا الأمر خطير جداً ولا يحتمل التأخير، لا سيما وأن الرجل بات مدركاً أننا مهتمون بشؤونه، ولهذا فإن كنت جاهزاً فسنطلب عربة لتقلنا إلى محطة واترلو في الحال، وسأكون ممتناً لو أحضرت مسدسك في جيبك لأنه سيكون مساعداً ممتازاً في النقاش مع سيد يستطيع أن يلوي عصا مدفأة فولاذية، وسيكون المسدس وفرشاة الأسنان هما كل

ما نحتاجه على ما أظن.

❋ ❋ ❋

حالفنا الحظ في محطة واترلو فاستطعنا اللحاق بقطار متجه إلى ليذرهيد، وهناك استأجرنا عربة خفيفة من المحطة فركبناها لمسافة أربعة أميال على طول طريق صرّي اللطيف. كان يوماً مثالياً أشرقت شمسه وانتشرت في سمائه بعض السحب الرقيقة، كما بزغت البراعم الخضراء على الأشجار والشجيرات الموجودة على جانب الطريق وعبق الجو برائحة لطيفة للأرض الرطبة، وبدا لي مدى التناقض الغريب بين بشائر الربيع اللطيفة وبين هذا التحقيق المشؤوم الذي نعمل فيه.

جلس رفيقي في مقدمة العربة وقد عقد ذراعيه على صدره وسحب قبعته على عينيه وأرخى ذقنه على صدره وغرق في تفكير عميق، ثم تحرك فجأة فربّت على كتفي وأشار إلى المراعي قائلاً: انظر هناك.

كانت الأرض هناك مغطاة بالأشجار وتمتدّ إلى الأعلى في انحدار بسيط يزداد كثافة عند أعلى نقطة حيث تتكاثف الأشجار، ومن وراء الفروع برز سقف عال لقصر عتيق جداً.

قال هولمز: ستوك موران؟

فأجاب السائق: نعم يا سيدي، وهذا المنزل للدكتور غريمسباي رويلوت.

قال هولمز: إن بعض أعمال البناء تجري في هذا البيت، وإليه نحن ذاهبان.

فقال السائق وهو يشير إلى مجموعة من الأسقف الظاهرة من بعيد على اليسار: هناك تقع القرية، ولكن إذا أردت أن تصل إلى المنزل فسوف تختصر الطريق إذا قفزت فوق هذا السياج ثم سرت في ممر المشاة عبر الحقول. ها هو الممر هناك، حيث تمشي السيدة.

فقال هولمز وهو يحجب الشمس عن عينيه:



Sydney Paget 1892 — رسم سدني باجيت ١٨٩٢

وهذه السيدة هي الآنسة ستونر كما أتخيل. نعم، من الأفضل أن ننفذ اقتراحك.

نزلنا ودفعنا الأجرة فقرقعت العربة عائدة إلى ليذرهيد، وقال هولمز ونحن نتسلق السياج: لقد فضّلت أن يظن الرجل أننا جئنا إلى هذا البيت للمشاركة في أعمال البناء، وهذا يمكن أن يمنعه من الثرثرة.

ثم قال يخاطب الآنسة ستونر: مساء الخير يا آنسة ستونر. أرأيت كيف حافظنا على كلمتنا؟

فأسرعت عميلة الصباح نحونا لتقابلنا ووجهها ينم عن الفرحة، وصاحت بحرارة: كنت أنتظركما بلهفة. لقد سارت الأمور على نحو رائع، فقد ذهب الدكتور رويلوت إلى المدينة ومن غير المحتمل أن يعود قبل المساء.

فقال هولمز: لقد أسعدنا الحظ وتعرفنا على الدكتور.

ثم شرح لها ما حدث في كلمات قليلة، فشحب وجه الآنسة ستونر وهي تنصت ثم صاحت قائلة: يا إلهي! لقد تبعني إذن؟

– هذا ما يبدو.

- إنه ماكر جداً لدرجة أنني لا أعرف متى أكون بأمان معه. ماذا سيقول عند عودته؟

- يجب أن ينتبه لنفسه، فقد يجد في أثره من هو أمكر منه. يجب أن تغلقي على نفسك الباب الليلة لتبتعدي عنه، أما إذا تصرف بعنف فسنأخذك إلى خالتك في هارو. والآن يجب أن نُحسن استغلال الوقت، ولذلك أرجو أن ترشدينا إلى الغرف التي يجب علينا فحصها.

كان المبنى من الحجارة الرمادية المكسوة بالنبات الأخضر، وقد تكوّن من جزء مركزي مرتفع وجناحين مقوّسين مثل مخالب السرطان البحري على كل جانب. وقد كان سطح أحد هذين الجناحين منهاراً بشكل جزئي وزجاج النوافذ مكسوراً وقد سُدَّت النوافذ نفسها بالألواح الخشبية، وكان الجزء الأوسط في حالة أفضل قليلاً، أما المبنى الواقع على الجانب الأيمن فكان حديثاً نسبياً وتدل الستائر الموجودة على نوافذه والدخان الأزرق المتصاعد من مداخنه على أنه مكان إقامة الأسرة.

رأينا بعض السقالات المنصوبة بجانب الجدار ولكن لم أشاهد أي دليل على وجود عمال في وقت زيارتنا. مشى هولمز ببطء ذهاباً وإياباً على طول المرج وفحص النوافذ من الخارج بعناية شديدة، ثم

قال: أظن أن هذه هي نافذة الغرفة التي اعتدت النوم فيها، والوسطى هي غرفة أختك، والمجاورة للمبنى الرئيسي هي غرفة الدكتور رويلوت.

- تماماً، ولكنني أنام الآن في الغرفة الوسطى.



رسم جوزف فريدرتش ١٩٠٦ — Josef Friedrich 1906

- في انتظار انتهاء الإصلاحات كما فهمت. بالمناسبة، لا أرى حاجة ملحّة لإجراء التصليحات في ذلك الجدار الأخير.

- لم تكن هناك حاجة لذلك، ولعله كان عذراً لإخراجي من غرفتي.

- آه! إن لهذا الأمر دلالات. والآن على الجانب الآخر من هذا الجناح الضيّق يمتد الممرّ الذي تفتح عليه هذه الغرف، وتوجد نوافذ فيه بالطبع.

- نعم، ولكنها صغيرة جداً ولا تتسع لمرور أي شخص.

- وبما أنكما أغلقتما بابَيكما في أثناء الليل فقد كان من المستحيل الوصول إلى الغرفتين من ذلك الجانب. والآن هل تتكرمين بالذهاب إلى غرفتك وإحكام إغلاق مصراع النافذة بالمزلاج؟

فعلت الآنسة ستونر ما طلبه، وبعد أن قام هولمز بفحص دقيق للنافذة المفتوحة حاول بكل طريقة فتح المصراع عنوة ولكن بلا نجاح، فلم يكن هناك شق يمكن من خلاله إدخال سكين لرفع المزلاج. وبعد ذلك فحص هولمز المفصلتين بعدسته المكبرة، ولكنهما كانتا من الحديد الصلب ومثبّتتين بقوة في المبنى الضخم.

قال هولمز وهو يحكّ ذقنه ببعض الحيرة:
حسناً، إن نظريتي تواجه بعض الصعوبات بالتأكيد، فلا يمكن لأي شخص أن يفتح هذه المصاريع إذا كانت مغلقة بالمزلاج. لنرَ ما إذا كنا سنجد ما يوضح الأمر في الداخل.

قاد بابٌ جانبي صغير إلى الممر المطلي باللون الأبيض والذي تفتح عليه أبواب الغرف، ورفض هولمز أن يفحص الغرفة الثالثة، وهكذا اتجهنا مباشرة إلى الغرفة الثانية، تلك التي تقيم فيها الآنسة ستونر مؤقتاً والتي لقيت فيها أختُها مصيرَها. كانت غرفة صغيرة بسيطة ذات سقف منخفض ومدفأة واسعة وفقاً لطراز المنازل الريفية القديمة، وفي أحد الزوايا صندوق بنّي كبير فيه أدراج لوضع الملابس وسرير على الجانب الأيسر للنافذة. كان هذا هو كل الأثاث الموجود في الغرفة مع كرسيين صغيرين من الخيزران وسجادة مربعة في وسط الغرفة، وكانت الأرضيات والألواح التي تزيّن الجدران من خشب البلوط البني المتآكل التي كانت شديدة القِدَم ولونها متغير لدرجة أنها قد تكون من عمر المبنى الأصلي.

سحب هولمز أحد الكراسي إلى ركن الغرفة وجلس صامتاً وهو يدور بعينيه في الغرفة كلها ليدرس كل تفصيلاتها، وأخيراً سأل وهو يشير إلى حبل يتدلى

بجانب السرير وطرفه على الوسادة: أين يدق هذا الجرس؟

- يدق في غرفة مديرة المنزل.

- يبدو أنه أحدث من الأشياء الأخرى.

- نعم، لقد وُضع هنا منذ عامين فقط.

- هل كانت أختك هي التي طلبته؟

- لا، لم أسمع أنها استخدمته قط، فقد اعتدنا على إحضار ما نريده بأنفسنا.

- حقاً، يبدو أنه من غير الضروري أن يوضع مثل هذا الحبل اللطيف للجرس هنا. أرجو أن تعذروني لدقائق قليلة حتى أتأكد من هذه الأرضية.

ثم استلقى على الأرض ووجهه إلى الأسفل وعدسته المكبّرة في يده، وأخذ يزحف بسرعة إلى الأمام وإلى الخلف وهو يفحص الشقوق الموجودة بين الألواح بدقّة، ثم قام بنفس الأمر مع الألواح الخشبية التي كانت تغطي جدران الغرفة، وأخيراً سار إلى السرير وأمضى بعض الوقت وهو يحدق إلى حبل الجرس ويدرس الجدار بعينيه من أعلى ومن أسفل، وبعد ذلك أخذ حبل الجرس في يده وشدّه بسرعة.

ثم أطلق صيحة تعجب وقال: إنه مزيف!

- ألن يرنّ؟

- لن يرنّ؛ فهو غير موصول بأي سلك! إن هذا الأمر مثير للاهتمام بشكل كبير، ويمكنك أن تشاهدي أنه مربوط بخطاف فوق فتحة التهوية الصغيرة مباشرة.

- يا له من أمر غريب! لم ألحظ ذلك من قبل مطلقاً.

غمغم هولمز وهو يشد الحبل قائلاً: غريب جداً! إن في هذه الغرفة بعض الحقائق الغريبة؛ فعلى سبيل المثال لا بدّ أن يكون البنّاء أحمق حتى يصل فتحة التهوية بغرفة أخرى في حين أنه كان يستطيع بلوغ الهواء الخارجي بنفس المجهود.

قالت السيدة: هذا أيضاً عمل حديث تماماً.

فعلّق هولمز قائلاً: وهل تم إنجازه في نفس الوقت مع حبل الجرس؟

- نعم، لقد نُفّذت عدة تغييرات صغيرة في ذلك الوقت.

- ويبدو أن هذه التغييرات كانت ذات خصائص مثيرة للاهتمام؛ حبل جرس مزيف، وفتحات تهوية لا

تهوّي! بعد إذنك، سنكمل بحثنا في الغرفة الداخلية.

كانت غرفة الدكتور رويلوت أوسع من غرفة ابنة زوجته ولكنها مفروشة بالبساطة نفسها؛ سرير ضيق، ورفّ خشبي صغير مليء بالكتب التي يغلب على معظمها الطابع العلمي، وكرسيّ بذراعين، وخزانة بجانب السرير، وكرسيّ خشبي بسيط بجوار الجدار، بالإضافة إلى طاولة دائرية وخزنة حديدية كبيرة.

مشى هولمز ببطء وتفحص كل هذه الأشياء باهتمام شديد، ثم سأل وهو يدقّ على الخزنة قائلاً: ماذا يوجد هنا؟



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

- أوراق عمل زوج أمي.

- أرأيتِ ما بداخلها إذن؟

- مرة واحدة فقط، منذ عدة سنوات، وأذكر أنها كانت ممتلئة بالأوراق.

- ألا توجد فيها قطة على سبيل المثال؟

- قطة؟! يا لها من فكرة غريبة!

أشار هولمز إلى صحن صغير كانَ موضوعاً فوق الخزنة وفيه قليل من الحليب وقال: حسناً، انظري إلى هذا.

- لا، نحن لا نربي قططاً، ولكن يوجد فهد وقرد.

- آه، نعم، بالطبع. حسناً، إن الفهد قطة كبيرة، ولو أنني أعتقد أن صحن اللبن صغير جداً ولن يلبي حاجته. بقيت نقطة واحدة أرغب في فحصها.

جلس هولمز القرفصاء أمام الكرسي الخشبي وفحصه بعناية شديدة، ثم قال وهو يقف ويضع عدسته في جيبه: شكراً، لقد انتهيت من هذا الأمر... يا للعجب، ها هو شيء مثير للاهتمام!

كان الشيء الذي جذب انتباهه سوطاً صغيراً

للكلاب معلقاً في إحدى زوايا السرير، وكان السوط ملفوفاً حول نفسه ومربوطاً بحيث أصبح مثل أنشوطة من الحبل المجدول.

- ما الذي تستنتجه من هذا يا واطسون؟

- إنه سوط عادي، ولكنني لا أعرف لماذا هو مربوط هكذا.

- هذا ليس بالأمر العادي، أليس كذلك؟ آه، إنه عالم شرّير، فعندما يوجّه رجل ماهر ذكاءه إلى الجريمة فهذا من أسوء الأمور. أظن أنني رأيت ما يكفي الآن يا آنسة ستونر، وسنخرج لنمشي على المرج العشبي.

لم يسبق أن رأيت وجه صديقي بمثل هذا التجهّم والعبوس كما رأيته ونحن نغادر مسرح هذا التحقيق. مشينا ذهاباً وإياباً عدة مرات على المرج العشبي، ولم أرغب أنا والآنسة ستونر في قطع حبل تفكيره قبل أن يفيق من أحلام اليقظة، وأخيراً قال: من الضروري جداً يا آنسة ستونر أن تتبعي نصيحتي بحذافيرها.

- سأفعل ذلك بكل تأكيد.

- إن الأمر خطير جداً ولا يحتمل أي تردد، فقد تعتمد حياتك على مدى طاعتك.

- أؤكد لك أنني تحت أمرك.

- أولاً سيتوجب عليّ أنا وصديقي قضاء الليل في غرفتك.

حدقتُ أنا والآنسة ستونر إليه بذهول.

- نعم، هكذا يجب أن يكون الأمر. سأوضح لكما كل شيء، أظن هذا هو فندق القرية هناك، أليس كذلك؟

- بلى، هذا هو مقهى وفندق كراون.

- جيد جداً، أيمكن رؤية نافذتك من هناك؟

- بالتأكيد.

- يجب أن تلزمي غرفتك وتدّعي إصابتك بالصداع عندما يعود زوج أمك، وبعد ذلك حين تسمعينه يأوي إلى فراشه يجب أن تفتحي مصراعَي نافذتك، ثم ضعي مصباحك هناك إشارة لنا وانسحبي بهدوء ومعك كل ما يمكن أن تحتاجيه إلى الغرفة التي اعتدتِ الإقامة فيها. لا شك في أنك لن تعجزي عن قضاء ليلة واحدة فيها رغم الإصلاحات.

- آه، نعم، بسهولة.

- واتركي الباقي علينا.

- ولكن ماذا ستفعلان؟

- سنقضي الليلة في غرفتك لنتحقق من هذه الضوضاء التي تزعجك.

قالت الآنسة ستونر وهي تنظر إلى رفيقي بأمل: أظن أنك توصلت إلى شيء بالفعل يا سيد هولمز؟



Sydney Paget 1892 رسم سدني باجيت ١٨٩٢

- ربما.

- أرجو أن تخبرني بسبب وفاة شقيقتي إذن.

- أفضّل أن تكون معي أدلة أوضح قبل أن أتكلم.

- يمكنك على الأقل أن تخبرني إذا كان ما أظنه صحيحاً، فهل ماتت من الخوف المفاجئ؟

- لا، لا أعتقد ذلك؛ بل أظن أن السبب أكثر واقعية. والآن يا آنسة ستونر يجب أن نغادر؛ فلو عاد الدكتور رويلوت ورآنا ستذهب رحلتنا هباء. إلى اللقاء، تشجّعي وتأكدي من أنك لو نفّذت ما قلته لك فسوف نخلّصك قريباً من الأخطار التي تتهددك.

* * *

لم أجد أنا وهولمز أية صعوبة في استئجار غرفة نوم وغرفة جلوس في فندق كراون، وكانت الغرفتان في الدور العلوي، واستطعنا من خلال النافذة أن نرى بوّابة الشارع والجناح المأهول من قصر ستوك موران. ورأينا الدكتور رويلوت وهو يصل في أول الليل وبنيته الضخمة تلوح عن بعد بجانب الجسم الضئيل للصبي الذي كان يقود العربة، وقد واجه الصبي بعض الصعوبة في فتح البوابة الحديدية الثقيلة، فسمعنا

صوت الدكتور الهادر الأجش ورأينا غضبه الشديد وهو يهز قبضتيه في وجهه. ثم تقدمت العربة، وبعد دقائق قليلة ظهر ضوء من بين الأشجار عندما أُشعل مصباح في إحدى غرف الجلوس.

قال هولمز ونحن جالسان في الظلام المتزايد: أتعرف يا واطسون؟ إنني متردد بعض الشيء في أخذك معي الليلة؛ ففي هذه القضية قدر كبير من الخطر.

- هل سأتمكّن من مساعدتك؟

- إن وجودك قد لا يقدَّر بثمن.

- إذن سآتي بالتأكيد.

- هذا لطف شديد منك.

- أتتحدث عن الخطر؟ من الواضح أنك رأيت في تلك الغرف أكثر مما رأيت أنا.

- لا، ولكن أعتقد أنني استنتجت أكثر قليلاً، وأتصور أنك رأيت كل ما رأيته.

- لم أرَ شيئاً يستحق الذكر سوى حبل الجرس، وأعترف بأنني لم أستطع استنتاج الغرض الذي يؤدّيه.

- أرأيت فتحة التهوية؟

- نعم، ولكن ليس من غير المعتاد أن تكون هناك فتحة صغيرة بين غرفتين، كما أنها صغيرة جداً لدرجة أنها بالكاد تتسع لفأر.

- كنت أعرف أننا سنجد فتحة التهوية قبل أن نأتي إلى ستوك موران.

- ماذا؟!

- نعم، لقد عرفت ذلك. أتذكر أنها قالت في إفادتها إن أختها استطاعت أن تشمّ رائحة تبغ الدكتور رويلوت؟ بالطبع هذا يوحي بضرورة وجود اتصال بين الغرفتين، ولا بد أن يكون اتصالاً صغيراً وإلا لورد في تحقيق قاضي الوفيات، ومن هنا استنتجت أنها فتحة للتهوية.

- ولكن ما الضرر الممكن في ذلك؟

- حسناً، لدينا على الأقل مصادفة مثيرة للفضول بالنسبة للتواريخ، فهناك تزامن بين فتحة التهوية التي وُضعت والحبل المزيف الذي تم تعليقه وبين موت السيدة التي تنام في نفس السرير. ألا يلفت هذا نظرك؟

- لا أستطيع رؤية الصلة حتى الآن؟

- ألاحظت شيئاً غريباً بخصوص السرير؟

- لا.

- لقد كان مثبّتاً إلى الأرض. هل سبق لك أن رأيت سريراً مثبّتاً بهذا الشكل من قبل؟

- لا أستطيع القول بأنني رأيت مثل ذلك.

- إن السيدة لا تستطيع تحريك سريرها، فيجب أن يبقى دائماً في نفس الموقع بالنسبة لفتحة التهوية وللحبل (كما يمكننا أن ندعوه، بما أنه لم يكن حبل جرس قط).

صِحت قائلاً: هولمز، أظن أنني بدأت أفهم ما ترمي إليه؛ فنحن في الوقت المناسب تماماً لنمنع جريمة ماكرة مروّعة!

- إنها جريمة ماكرة ومروّعة جداً، فعندما يتجه طبيب إلى طريق الشر يكون من أفضل المجرمين؛ فهو يمتلك المعرفة وقوة الأعصاب. ورغم ذلك أعتقد أننا سنهزمه، ولكننا سنواجه ما يكفي من الأهوال قبل أن تنتهي الليلة. دعنا ندخن الغليون بهدوء ونفكر في شيء أكثر بهجة لساعات قليلة.

* * *

أُطفئ النور الظاهر من بين الأشجار في نحو الساعة التاسعة، ومرت ساعتان ببطء، ثم فجأة وفي

تمام الحادية عشرة لمع ضوء وحيد ساطع أمامنا مباشرة، فهبّ هولمز على قدميه وقال: هذه إشارتنا، إنها صادرة عن النافذة الوسطى.

تبادل هولمز ونحن في طريق الخروج كلمات قليلة مع مالك الفندق موضّحاً له أننا سنذهب في زيارة متأخرة لأحد الأصدقاء، وقال إن من الممكن أن نقضي جزءاً من الليل هناك. وبعد لحظة كنا في الخارج في الطريق المظلم، تهبّ علينا رياح باردة وضوء أصفر يومض أمامنا وسط الظلمة ليرشدنا في مهمتنا الغامضة.

لم نواجه صعوبة كبيرة في الدخول إلى الحديقة لأن الثغرات غير المرمَّمة كانت كثيرة في جدارها، وبعد أن مشينا وسط الأشجار وصلنا إلى المرج العشبي، ثم عبرناه، وكنا على وشك الدخول من النافذة عندما اندفع من بين شُجَيرات الغار ما بدا كطفل مشوّه بشع ورمى بنفسه على العشب وأخذ يتلوى، ثم جرى بسرعة على المرج واختفى في الظلام.

همست قائلاً: يا إلهي! هل رأيته؟

جفل هولمز للحظة مثلي وأطبق بيده على معصمي في انفعال، ثم انفجر في الضحك بصوت منخفض ووضع شفتيه على أذني وغمغم قائلاً: إنها

عائلة لطيفة... هذا هو القرد.

كنت قد نسيت الحيوانات الغريبة التي يميل إليها الدكتور. وهناك فهد أيضاً، وقد نجده، وقد يقفز على أكتافنا في أية لحظة! وأعترف أن بالي اطمأنّ عندما



رسم جوزف فريدرتش ١٩٠٦ Josef Friedrich 1906

وجدت نفسي داخل غرفة النوم بعد أن حذوت حذو هولمز وخلعت حذائي، وأغلق رفيقي مصراع النافذة بهدوء ونقل المصباح إلى الطاولة، ثم جال بعينيه في الغرفة التي كان كل شيء فيها كما رأيناه في ضوء النهار، ثم تسلل إلى جانبي ووضع يده على أذني وهي على شكل بوق وهمس ثانية ببطء شديد حتى إنني بذلت جهداً كبيراً حتى أستطيع تمييز الكلمات: أقل صوت يمكن أن يدمّر خططنا.

فأومأت لأوضّح أنني قد سمعته.

- يجب أن نجلس بلا ضوء وإلا رآنا من خلال فتحة التهوية.

فأومأت ثانية.

- إياك والنعاس، فحياتك تعتمد على يقظتك. احتفظ بمسدسك جاهزاً فقد نحتاجه. سأجلس أنا على أحد جوانب السرير وأنت على ذلك الكرسي.

أخرجت مسدسي ووضعته على ركن الطاولة، وكان هولمز قد أحضر عصا رفيعة طويلة فوضعها على السرير بجانبه ووضع بجانبها علبة من الكبريت وشمعة صغيرة، وبعد ذلك أطفأ المصباح وجلسنا في الظلام.

لن أتمكن أبداً من نسيان تلك الليلة الرهيبة، فقد ساد صمت تام، ومع ذلك فقد عرفت أن رفيقي يجلس في يقظة تامة على مقربة مني ويشعر بالقدر نفسه من التوتر العصبي الذي أشعر به، وبما أن إغلاق المصراع قد قطع عنا كل الضوء فقد جلسنا في ظلام دامس.

وصلتنا من الخارج صيحات طائر ليليّ من حين إلى آخر، وفي أحدى المرات سمعنا عند نافذتنا تماماً صوت مواء طويل مما أكّد لنا أن الفهد طليق، بالإضافة إلى صوت بعيد أجوف لجرس ساعة الكنيسة التي كانت تدق كل ربع ساعة. وكم بدا الوقت طويلاً بين كل دقة والأخرى... دقّت الساعة الثانية عشرة، ثم الواحدة، وبعدها الثانية والثالثة، وما زلنا جالسَين ننتظر بصمت ما سوف يحدث.

وفجأة ومض ضوء للحظة واختفى في الناحية الأخرى من فتحة التهوية، وتبعته رائحة وَقود محترق ومعدن مسخّن؛ لقد أشعل شخصٌ مصباحاً في الغرفة المجاورة. ثم سمعت صوتاً منخفضاً لحركة خفيفة، وبعد ذلك ساد الصمت مرة أخرى بالرغم من أن الرائحة ازدادت قوة. وقد جلست منصتاً لنصف ساعة، وبعد ذلك صدر فجأة صوت آخر منخفض جداً، صوتٌ كصوت تسرّب دفق صغير من البخار من

إحدى الغلاّيات، وفي اللحظة التي سمعنا فيها هذا الصوت هبّ هولمز من السرير وأشعل عود كبريت واندفع يضرب حبل الجرس بعصاه بعنف وصاح قائلاً: أرأيته يا واطسون؟ أرأيته؟

ولكنني لم أرَ شيئاً. وفي اللحظة التي أشعل فيها هولمز المصباح سمعت صفارة واضحة منخفضة، ولكن الوهج المفاجئ ومض في عينيّ المتعبتين وجعل من المستحيل عليّ أن أعرف ما الذي كان صديقي يضربه بهذا العنف، ولكنني استطعت -على



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

أية حال- أن أرى أنّ وجهه كان شديد الشحوب ويملؤه الرعب والاشمئزاز.

كان قد توقف عن الضرب وأخذ يحملق في فتحة التهوية عندما اخترق صمتَ الليل فجأة أكثرُ الصرخات فظاعة، وأخذ صوت الصرخة يعلو أكثر وأكثر، صيحة متحشرجة يمتزج فيها الألم والخوف والغضب معاً في صرخة واحدة مفزعة! وقد قيل بعد ذلك إن الصوت وصل بعيداً إلى القرية حتى بيت القسيس البعيد، فهبّ النائمون من أسرّتهم! أما أنا فقد ارتجف قلبي ووقفت أحدق إلى هولمز وهو يحدق إليّ حتى تلاشت أصداء الصرخة ليسود الصمت مرة أخرى، فشهقت قائلاً: ماذا يعني ذلك؟!

فأجاب هولمز: يعني أن كل شيء قد انتهى، وربما كان ذلك بأفضل شكل ممكن. أحضر مسدسك وسندخل إلى غرفة الدكتور رويلوت.

أشعل هولمز المصباح بوجه متجهّم وقاد الطريق عبر الرُّواق، ودقّ مرتين على باب الغرفة دون أيّ رد من الداخل، ثم أدار المقبض ودخل وأنا في أعقابه والمسدس في يدي.

كان المنظر الذي رأيته غريباً، فقد كان على الطاولة مصباح داكن غطاؤه نصف مفتوح يُلقي بشعاع

ضوء لامع على الخزنة الحديدية التي كان بابها نصف مفتوح، وقد جلس الدكتور غريمسباي رويلوت على كرسيٍ خشبي بجانب هذه الطاولة مرتدياً رداء منزلياً طويلاً رمادي اللون يبرز منه كاحلاه وفي قدميه خفّ أحمر اللون، ورأيت في حضنه السوط الطويل ذا العقب القصير الذي لاحظناه خلال النهار، وكان وجهه مرفوعاً إلى الأعلى وقد ثبتت عيناه في حملقة



رسم جوزف فريدرتش ١٩٠٦ Josef Friedrich 1906

جامدة فزعة إلى زاوية السقف، وفوق حاجبيه عصابة صفراء غريبة فيها نُقَط بُنّية بدا أنها مربوطة بشدة حول رأسه، وحين دخلنا لم يصدر منه لا صوت ولا حركة.

همس هولمز قائلاً: العصابة... العصابة المرقّطة.

فخطوت خطوة إلى الأمام، وفي لحظة بدأَت عصابة الرأس الغريبة بالحركة، فقد شبّ من وسط شعر الرجل رأس ضخم ورقبة منتفخة لأفعى مقزِّزة.

صاح هولمز: إنها أفعى المستنقع، وهي أخطر الأفاعي التي تعيش في الهند. لقد قتلته لدغتها في أقل من عشر ثوان! الشرّ يرتدّ على الشرير، ومدبّر المكائد يقع في الحفرة التي يحفرها للآخرين. فلنعد هذا المخلوق إلى عرينه، وعندها يمكننا أن ننقل الآنسة ستونر إلى مكان آمن ونخبر شرطة المقاطعة بما حدث.

وبينما كان يتكلم سحب السوط من حضن القتيل بسرعة وألقى بالأنشوطة حول رقبة الأفعى الزاحفة فسحبها من مقعدها المروّع ورماها في الخزنة الحديدية وأغلق الباب عليها.

* * *

هذه هي الوقائع الحقيقية لحادثة وفاة الدكتور غريمسباي، ومن غير الضروري أن أطيل القصة (التي طالت جداً بالفعل) بسرد الأسلوب الذي نقلنا به الخبر إلى الفتاة المروَّعة، وكيف أوصلناها في قطار الصباح إلى هارو لنضعها في رعاية خالتها الطيّبة، وكيف انتهت جلسة التحقيق الرسمية البطيئة إلى أن الطبيب قد لقي مصيره بينما كان يلعب بحماقة مع حيوان خطير. وما تبقى من تفصيلات القضية أخبرني به هولمز حين كنا عائدَين في اليوم التالي.

قال هولمز: كنت قد توصلت إلى استنتاج خاطئ كلياً، مما يدل -يا عزيزي واطسون- على أن من الخطر القيام بالتحليل المنطقي انطلاقاً من بيانات غير كافية، فكلمة «عصابة» التي استخدمَتها الفتاة المسكينة وهي تحاول تفسير المنظر الذي لمحته في ضوء شعلة عود الكبريت كانت كافية لوضعي على الطريق الخطأ. كما تعلم فالعصابة كلمة ذات معنيَين؛ فهي تعني الجماعة من الناس، لكنها تعني أيضاً ما يُعصَب به الرأس. الحسنة الوحيدة التي أدّعيها لنفسي هي أنني أعدت النظر في موقفي في اللحظة التي أصبح واضحاً لي فيها أن الخطر الذي هدّد شاغلةَ الغرفة، كائناً ما كان، لم يكن من الممكن أن يدخل من الشبّاك أو الباب، فاتجه انتباهي سريعاً -كما أشرت إليك من

قبل- إلى فتحة التهوية وإلى الحبل الذي يتدلى وصولاً إلى السرير.

وحين اكتشفت أنه مزيف وأن السرير مثبّت في الأرض ساورني الشك في أن الحبل قد وُضع هناك ليكون بمثابة الجسر لشيء يعبر الفتحة حتى يصل إلى السرير، وقد خطرت على بالي فكرة الأفعى فوراً، وحين ربطت هذه الحقيقة بما عرفناه سابقاً من أمر تزويد الدكتور بحيوانات من الهند شعرت أنني على المسار الصحيح.

إن فكرة استخدام نوع من أنواع السم الذي لا يُكتشَف بالاختبارات الكيماوية كانت من الأفكار التي لا تخطر إلا على بال شخص ماهر وقاسٍ وحاصل على تعليم شرقي، وسوف يحتاج الأمر إلى طبيب شرعي حادّ النظر ليستطيع تمييز الثقبين الصغيرين الداكنين حيث قام نابا الأفعى بعملهما. وعند ذلك فكرت في الصفير، فقد كان على الدكتور أن يسترجع الثعبان قبل أن يكشفه ضوء النهار، ولعله قد درّبه باستخدام اللبن الذي رأيناه بحيث يعود إليه عندما يستدعيه. وهكذا فقد دأب على وضع الثعبان في فتحة التهوية في الوقت المناسب كل ليلة، وكان متأكداً من أن الثعبان سوف يزحف على الحبل إلى الأسفل حتى يصل إلى السرير. وقد يلدغ شاغلةَ السرير وقد لا يلدغها، فربما نجت منه ليلة بعد ليلة لمدة أسبوع، ولكن لا [illegible] أن تسقط

ضحية له عاجلاً أو آجلاً.



رسم رتشارد ليبنسون ١٩٨٧ Richard Lebenson 1987

لقد وصلت إلى هذه النتيجة قبل أن أدخل تلك الغرفة، ثم أظهر لي الفحص الذي أجريته على الكرسي أنه اعتاد الوقوف عليه، وهو أمر ضروري إذا أراد الوصول إلى فتحة التهوية. وكانت مشاهدة الخزنة وصحن الحليب والأنشوطة كافية لتبديد أية شكوك باقية، فالصرير المعدني الذي سمعَته الآنسة ستونر كان سببه إغلاق زوج أمها بابَ الخزنة بسرعة على قاطنها المرعب. وأنت تعرف الخطوات التي قمتُ بها بعدما وَضَح لي الأمر، فعندما سمعت فحيح ذلك المخلوق -كما سمعتَه أنت أيضاً بلا شك- أشعلت الضوء وهاجمتُه على الفور.

- وكان النتيجة أن الثعبان هرب عائداً عبر فتحة التهوية.

- وبذلك انقلب على سيّده في الناحية الأخرى؛ فقد أصابته بعض الضربات من عصاي وأثارت غريزته الدفاعية فانقضّ على الشخص الأول الذي رآه، وبهذه النتيجة أكون مسؤولاً بشكل غير مباشر عن موت الدكتور غريمسباي رويلوت، لكني لن أزعم أن هذا الأمر يمكن أن يؤرّق ضميري في أي يوم من الأيام.

* * *

-تمت-

صدر من هذه المجموعة

مغامرات شيرلوك هولمز

(١) فضيحة في بوهيميا
(٢) قضية هوية
(٣) عصبة ذوي الشَّعْر الأحمر
(٤) لغز وادي بوسكومب
(٥) بذور البرتقال الخمس
(٦) ذو الشّفة الملتوية
(٧) مغامرة الجوهرة الزرقاء
(٨) لغز العصابة الرقطاء
(٩) مغامرة إبهام المهندس
(١٠) مغامرة النبيل الأعزب
(١١) مغامرة تاج الزمرّد
(١٢) منزل الأشجار النحاسية



The Adventures of Sherlock Holmes







The Adventure of the Speckled Band







